الفصل السادس

التهيؤ لحروب الردة

هزم أبو بكر عبسًا وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم وأجلاهم عن مواقعهم بالأبرق ، فانحازوا إلى طُلَيحة بن خُوَيْلد الأسَدىّ بِبُزاخةَ . وقد أعلن أبو بكر أن الله غَنَّمه هذه البلاد فلن يردها إلى أصحابها ، وأنه جعل الأبرق لخيول المسلمين ، وأرعى سائر بلاد الرَّبَذة الناس وجعلها صدقات للذين آمنوا . ورجع الصدّيق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم . فما كان ليذرَهم فى شتَّى الأنحاء من شبه الجزيرة يثورون به وبدين الله ، وما كان ليصالحهم أو يوادعهم قبل أن يثوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين .

توزيع الجند ألوية لقتال المرتدين

وأقام بالمدينة ، حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة جَمَّ خرج به إلى ذى القَصَّة فوزع الجند أحد عشر لواءً جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة وأن يسير لقتال المرتدين * .

* وزع أبو بكر هذه الألوية توزيعاً يجعلها تتناسب فى عددها وفى إمارتها مع قوة القبائل التى وجهها إليها ، ومبلغ إلحاح هذه القبائل فى الردة . لذلك وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد فى بنى أسد ، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويرة زعيم بنى تميم بالبطاح . وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة ، فكان طبيعياً أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم فى أعضاد غيرهم . وخالد أجدر القواد بأن يعقد النصر له لواءه .

وجعل أبو بكر عكرمة بن أبى جهل على اللواء الثانى ووجهه لقتال مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة . ثم جعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة . فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مدداً لعمرو بن العاص . وقد استعصت اليمامة على عكرمة وعلى شرحبيل ثم كان خالد بن الوليد هو الذى قضى على الردة فيها بعد أن قتل مسيلمة فى غزوة عقرباء .

وعقد أبو بكر للمهاجر بن أبى أمية المخزومى إمارة اللواء الرابع لقتال جنود العنسى باليمن ولقتال عمرو بن معدى كرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى ورجالها ، فإذا فرغ منهم =

احتفظ أبو بكر للمدينة بقوة تحميها كانت دون الألوية عدداً . ذلك أن المدينة كانت يومذاك بمأمن من غارة المغير ، وكانت فى رخاء زاد أهلها اطمئنانا للحياة . وكيف لقبيلة أن تُغير عليها والغارات توجَّه منها إلى كل صوب ، وقد تداول سمع الناس من أنباء جندها المظفر وماله من الأيد والبسالة ما جعل دفع هذا الجند غاية ما يطمع فيه الثائرون بها ! .

أبو بكر بالمدينة مركز القيادة العامة

ومن يومئذ أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها . ولم يكن ذلك رغبة منه عن مشاركة المسلمين فى مواقعهم ، بل لأن المدينة أصبحت مكان القيادة العامة للجند كله ، والمرجع الذى تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر. فقد كان مما أمر به أبو بكر قوّاده ألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلَّب عليها إلى مواجهة أخرى لمقاتلتها حتى يستأذنه ؛ وذلك إيمانًا منه بأن وحدة القيادة فى الحرب بعض ما تقضى به السياسة الحكيمة ، وما يكفل الغلبَ والفوز .

اختياره أمراء الألوية من المهاجرين

وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الألوية للمهاجرين ولم يجعل لهم منها نصيبًا . وهو إنما فعل هذا ليبقّى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها ، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها . أما ماظنه بعضهم من أنه استبقاهم حذراً منهم بعد الذى أبدَوه فى سقيفة بنى ساعدة فلا مسوّغ له . فهذه الألوية إنما عقدت لقتال المرتدين . ولم يكن الأنصار دون المهاجرين إيمانًا بالله ورسوله ، فالحذر من ناحيتهم فى هذا القتال

= قصد إلى كندة وحضرموت يقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه . أما اللواء الخامس فوجهه إلى تهامة اليمن وجعل عليه سويد بن مقرن الأوسى .

وعقد إمارة اللواء السادس للعلاء بن الحضرمى لقتال الحطم بن ضبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة والمرتدين معه بالبحرين . ووجه حذيفة بن محصن الغلفانى من حمير على رأس اللواء السابع لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى المتنبىء فى عمان . وكانت وجهة اللواء الثامن وعليه عرفجة بن هرثمة إلى مهرة .

كان طبيعياً أن توجه هذه الألوية إلى الجنوب لبأس أهله وإلحاحهم فى الردة . أما الشمال من شبه الجزيرة فتوجهت إليه ألوية ثلاثة ، على أحدها عمرو بن العاص لقتال قضاعة ، وعلى الثانى معن ابن حاجز السلمى لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن ، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام . .

لا مسوّغ له . ولو أن مثل هذا التأويل ساغ فى شأن الأنصار لساغ كذلك فى شأن كبار المهاجرين أمثال علىّ ، وطلحة ، والزبير ، ممن أقاموا كما أقام عمر بن الخطاب بالمدينة ليشيروا على أبى بكر ، فيكون مركز القيادة العامة قويًّا بهم وبما يضعون من خُطَط ويدبّرون من أمور .

أبو بكر فوق الشبهات

وممّ كان أبو بكر يحذَر أو يخشى ؟ إنه لم يتول الخلافة رغبة منه فيها ، بل لأن أولى الرأى بالمدينة رأوه أصلحهم لها . ولقد أبدى منذ تولاها من التقدير لأعبائها ما يشهد بأنه قبلها مضحيًا فى سبيل الله . كان مما قاله وهو يخطب الناس بعد قليل من تمام بيعته : «أما بعد، فإنى وَلِيتُ هذا الأمر وأنا له كاره . ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه ! » . وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك» . فرفع الناس رءوسهم دهشًا فقال : « مالكم أيها الناس ! إنكم لطعّانون عَجِلون . إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما بيده ، ورغّبه فيما بيد غيره . . . فهو كالسراب الخادع ، جَذِل الظاهر ، حزين الباطن » وكان منزل أبى بكر بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة منزلا بدويًّا صغيراً لم يغيّر منه ولا غيّر من منزله بالمدينة بعد ما بويع ، بل أقام به ستة أشهر يغدو على رجليه من السُّنْح إلى المدينة ، وربما ركب فرسًا له . وكان يتّجر فى الثياب فلما رأى أعباء الدولة أشق من أن تتفق والتجارة قال : « لا والله ما يصلح أمر الناس والتجارة ! وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر فى شأنهم . ولا بد لعيالى ما يصلحهم » . وترك التجارة ووظّف له من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله . فلما حضرته الوفاة قال : « رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئًا ، وإنّ أرضى بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم» . قال عمر بن الخطاب وهو يستولى على هذه الأرض بعد ما استخلف : « لقد أتعب أبو بكر مَنْ بعده » .

رجل ذلك شأنه ممّ يحذَر ! وما كان عسى أن يحذر يوم عقد الألوية الأحد عشر وكانت مكانته قد توطدت بين المسلمين ، بل بين العرب جميعًا ، بما أبدى من حزم وحسن رأى وصدق إيمان وحرص على التضحية كانت كلها بعض صفاته فى جميع أدوار حياته ، ثم بلغت أوج قوتها وصفائها فى هذه

الآونة التى جلّل الشيب فيها رأسه بعد أن تخطى الستين وتولى خلافة رسول الله . لذلك لم يخامر أحداً الريب فى مقاصده ، ولم يتردد أحد فى تنفيذ ما أمر به .

لواء خالد بن الوليد

ولقد كان اللواء الذى عقده لخالد بن الوليد أمنع الألوية الأحد عشر وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار . ولعل خالداً هو الذى اختارهم . وسترى من بعد أنهم أبْلَوْا فى حروب الرّدّة خير بلاء ، ثم كان لهم فى حروب العراق والشام بلاء لا تُبليه الأيام ، ولا يجنى عليه النسيان .

خالد بن الوليد عبقرى الحرب وسيف الله

ولا عجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالدٌ عبقرياً فى الحرب لا يغلب . آتاه الله موهبتها ، كما آتى هذه الموهبة الإسكندر الأكبر ، وجنكيزخان ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، ونابليون . كان بطلا مقداماً وفارساً مغامراً ، ثم كان له من سلامة الحكم وسرعته ما يجنّبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام . وكان مداوراً فى الحرب ألهم سرها ، وتجلّى له ما جل ودق من أمرها وكان الناس جميعاً يشهدون له بهذا ، وقد سمّاه رسول الله « سيف الله » حين تولى أمر الجيش « بمؤتة » بعد مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، فداور به فى وجه الروم ثم ارتد به سالماً لم ينتصر ولم يلحقه عار الهزيمة . وبقى خالد سيف الله فى كل وقائعه إلى أن مات .

وكان خالد قبل إسلامه بطل قريش المغوارَ وفارسها المُعْلَم . لذلك كان فى وقائع بدْر وأحُد والخندق على جيش المشركين . وكان له من صفات الجندى خشونة فى الطبع ، وميل إلى الشدة والبطش ، وتسرع لولا سلامة حكمه لأضرّ به . من ثمّ كان لا يهاب الأقران ولا يخشى أحداً . لما ذهب رسول الله إلى مكة فى عمرة القضاء بعد عهد الحُدَيْبِيَة ثم عاد إلى المدينة ، وقف خالد ابن الوليد فى جمع من قريش يقول : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لبّ أن يتبعه » . ودار لذلك بينه وبين عِكْرِمة بن أبى جهل حوارٌ لم يبلغ العنف

فيه مبلغًا تخشى مغبّته . ولم يكن أبو سفيان حاضراً هذا الاجتماع . فلما بلغه إسلام خالد بعث فى طلبه وسأله : أحق ما بلغه عنه ؟ أجابه خالد أنه حق ، وأنه أسلم ، وشهد برسالة محمد ؛ فغضب أبو سفيان وقال : « واللاّت والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد» . وكان جواب خالد فى حدّة المعتز بنفسه : « فوالله إنه لحقٌّ على رَغْمِ من رَغِمِ » .

ولَحِق خالد بالمدينة ، فلم يلبث أن سمت مكانته بين المسلمين بوصفه محاربًا . فلما كانت مُؤْتة كان سيف الله فيها ، ثم كان سيفَ الله من بعد ؛ فتح الله به العراق والشام، وأذل به فارس والروم الإمبراطوريتين العظيمتين صاحبتى الأمر والنهى فى شئون العالم يومئذ . فلاعجب أن يختاره أبو بكر أميراً على لوائه الأمنع . ولا عجب أن يكون لخالد فى حروب الردة وما تلاها ما سنقص عليك نبأه من بعد .

الهجوم السلمى الذى سبق حروب الردة

هل سيَّر أبو بكر هذه الألوية الأحد عشر للقتال أول ما تم تجهيزها ؟ وهل سيرها كلها دفعة واحدة ؟ ذلك ما يذكره بعض الرواة وإن دلّت الوقائع على خلافه . لكنه على كل حال لم يسيِّر أوّلها حتى بدأ بهجوم سلمى مهّد به لها خير تمهيد . فقد أذاع فى الناس من أهل شبه الجزيرة جميعًا كتابًا تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلّغ ما أمره الله أن يُبلغه للناس، وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» . وقال : «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ» . وقال : للمؤمنين : «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» .

وإنما أراد الصدّيق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ما ثار من الفتنة بقول

الذين قالوا : لو أن محمداً كان رسولا حقًّا مامات . وبعد أن فرغ من ذلك ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال : «وقد بلغنى رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله عز وجل ، وجهالة لأمره ، وإجابة للشيطان . . وإنى قد أنفذت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب وأقرّ وكفّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقى على أحد منهم قَدَر عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعْجِزَ الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم . والداعية الأذان » . لذلك كان المسلمون إذا أذّنوا فأذّن الناس كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا سألوهم ما هم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم .

كتاب الصديق إلى المرتدين

أذاع أبو بكر هذه الرسالة فى مختلف الأنحاء من شبه الجزيرة . وإنما ابتغى بها أن يدع للمترددين فرصة للتفكير ؛ فإنه قد انساق كثيرون وراء الدعاة مخافة ما يصيبهم إذا أقاموا على إسلامهم . فإذا رأوا أنفسهم بين قوّتين مالت نفوسهم إلى إسلامها ، أو أمسكوا على الأقل عن نصرة زعماء الردة . بذلك تُحْقَن دماء ، وبه يتضعضع عزم كثيرين فلا يقاومون . وسترى أن هذا الأثر الذى قصد إليه أبو بكر من هجومه السلمىّ قد تحقق منه حظٌّ عظيم .

على أن أبا بكر لم يقصد من هجومه ذاك مداورة يقف عندها ، فإن أنتجت أثرها فذاك ، وإن لم تنتجه التمس وسيلة غيرها لهجوم سلمىّ آخر . كلا ! بل لقد كان جادًّا كل الجد فى كل كلمة من كلمات كتابه ، وفى كل صورة من صور التهديد التى ذكرها فيه . فهو لم يلبث حين أتم هذا الكتاب يُعْذِر فيه للمرتدين ويُنذرهم أن كتب إلى أمراء الألوية عهداً لقتال مَنْ رجع عن الإسلام أن يجاهدوهم بعد أن يُعْذِروا إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام . فإن أجابوا الأمير على جند المسلمين أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم

جد الصديق فى هجومه السلمى

حتى يقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم مالهم ، ولا يُنْظرهم . ومن يجب الدعوة لم يكن لأحد عليه سبيل ، وكان الله حسيبَه بعدُ فيما استسرّ به . أما من لم يجب داعى الله فليُقتَلْ وليُقَاتَلْ حيث كان ، ولا يقبل منه إلا الإسلام ، وليقتل بالسلاح والنيران .

سياسته ، وتأويل حزم أبى بكر فى تنفيذها

بهذين الكتابين وبالألوية التى عقدها أبو بكر تمّ التجهيز لحروب الردّة . وأنت ترى فى هذا كله صورة صحيحة للسياسة الحازمة التى اتبعها أبو بكر فى خلافته . وقد يحسبها البعض عجبًا من أبى بكر مع ما عرف عنه من لين الطبع ودماثة الخلق والحرص على تألّف القلوب بالحسنى . لكنها ليست عجيبة ألبتة وإيمان الصدّيق بالله ورسوله لم يعرف التردد يومًا إليه سبيلا . والطبائع الرفيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة فى مألوف ما بين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمر بشىء يؤمن أصحاب هذه الطبائع به ، فلن تقاس بشدّتهم شدة ولا بقوتهم قوة . وكأنما رُكّب فى الفطرة الإنسانية مقدارٌ من الشدة واللين يتقارب قدره فى كل فرد من الناس جميعًا ، ثم يتفاوتون فى تقدير الأوقات والمناسبات التى تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين . فمنهم من تغلب الشدة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يلين أبداً . ومنهم من تغلب الرقة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يشتد أبداً . والواقع أنك ترى من تغلب الشدة طبعه يلين أحيانًا ، فإذا به يبلغ فى رقته وفى لينه حدًّا لا يجده الإنسان فيمن ألف منهم لين الجانب ورقة الطبع . والذين تغلبهم الرقة معظم الوقت وتبلغ حدّ التألم للغير والبكاء لشقائه ، يصلون من البأس والبطش أحيانًا إلى حد لا يجده الإنسان فيمن كانت الشدة بعض طبعهم .

أفكان يظن أحدٌ أن يقف أبو بكر من بعث أسامة ذلك الموقف الحاسم مخالفًا كبار المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ؛ أو أن يشتد فى أمر الذين منعوا الزكاة لا يصده عن قتالهم غياب جيش المسلمين عن المدينة ؟ ! وسترى له من بعد مواقف كهذه تثير عجبك وإعجابك لبأس رجل كله الرقة والرفق ولين الجانب .

وقد بيّنا تأويل ذلك من قبل حين تحدثنا عن إيمان الصدّيق بالله ورسوله .

كان هذا الإيمان عنده هو الحق لا حق غيره ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان حقًّا كله ، فصَّله الله فى كتابه الذى أوحاه إلى محمد عبده ورسوله . فإذا جاز أن يساوم الناس بعضهم بعضًا على أمر فى الحياة ، فلن تتناول المساومة هذا الحق المتصل بالله جل شأنه ، والذى لا يملك أحد من أمره إلا التسليم به والإذعان له . فمن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبى بكر معه إلا أن يقاتله حتى يرده إلى الحق أو يقتله . وهو يقاتله ولو كان الصدّيق وحده ، ولو لم يبق فى القرى غيره . كذلك كان فى أمر من منعوا الزكاة . فأحْرِ به أن يكونه فى أمر من تمتّ ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله .

حروب الردة حاسمة فى حياة الإسلام

آن لأبى بكر بعد أن تم التهيؤ لقتال المرتدين أن يبدأ هذه الحرب الحاسمة فى حياة الإسلام . فقد كانت حربًا حاسمة لا ريب . ولئن لم ينتصر المسلمون فيها ليكونن ذلك النذير بعود العرب إلى جاهليتهم الأولى . لكن الله جل ثناؤه قدَّر أن يُظهر دينه على الدين كله ، وجعل أبا بكر آية له تطالع الناس بما أراد وقدَّر . لذلك لم يعرف تاريخ الإسلام ولن يعرف حروب ردة كالتى واجهها أبو بكر فتغلَّب بإيمانه عليها ، ثم كانت طليعة انتشار الإسلام فى الخافقين .